الأوقاف في تركيا[1]

د.سهيل صابان

أهمية الأوقاف في الدولة العثمانية

فإن موضوع الأوقاف في تركيا موضوع متشعب، يتفرع عنه كثير من الأمور المتعلقة بالدولة والمجتمع من جهة، وبالتاريخ والحضارة الإسلامية من جهة أخرى؛ ذلك أن الأوقاف في تركيا الراهنة، حتى وإن لم تكن على النحو الذي كانت عليه إبان الحكم العثماني، إلا أنها في حقيقة الأمر امتداد لتاريخ الحضارة الإسلامية، بدءاً من القرن الإسلامي الثاني، وحتى الوقت الحاضر. لكن ازدهارها وانتعاشها، كان في عهد الدولة العثمانية، أكثر من العصور التي سبقتها. وهذا الموضوع يمكن تشبيهه بالتطور الذي حصل في الخط العربي؛ فبالرغم مما شهده الخط العربي من اهتمام وعناية في العصور الإسلامية التي سبقت العهد العثماني، إلا أن وصول الخط العربي إلى أوجها، والتفنن في تطويرها لم يكن إلا في العهد العثماني. وعلى الغرار ذاته فإن الأوقاف لم تتطور وتتنوع على النحو الذي نشهدها اليوم في الأقطار التي كانت خاضعة للحكم العثماني، إلا في هذا العهد. ومن هنا فإن الاستفادة من الخبرة العثمانية في مجال الأوقاف، جديرة بالتأمل والدراسة.

والوقف مؤسسة اجتماعية دينية ثقافية، قام بدور بارز في الحضارة الإسلامية، وفي عهدي السلجوقي والعثماني، بدءاً من القرن الثامن الميلادي وحتى نهايات القرن التاسع عشر الميلادي. والواقف ينطلق في وقفه لتقديم خدمة إنسانية إلى محتاجيها، يرى حاجتهم إليها، وذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى، وليس تحت ضغط معين. وكما يقول عمر حلمي في كتابه "إتحاف الأحلاف في أحكام الأوقاف" (إستانبول:١٣٠٧هـ. ص٥): إن أفضل الأوقاف هو وقف شيء، يُحس الناس أنهم بحاجة ماسة إليه.

وقد أطلق على عنصريْ الوقف الإسلامي المهمين **الخيرات**: وهي المباني والمؤسسات الوقفية التي يستفاد منها شخصياً، **والعقارات**، وهي الموارد المالية الموقوفة على تلك المؤسسات الوقفية، للاستمرار في تقديم خدماتها مدى الأيام والشهور والسنين. ويطلق على الوثيقة التي تنظم شؤون الوقف وكيفية تحقيق أهدافها اسم **الوقفية**. كما أن لفظة **المبرَّة** من

---

[1] نشر في **الفيصل**.- ع ٣٣٢ (صفر ١٤٢٥هـ/أبريل ٢٠٠٤م). ص ٦٢-٦٧

الألفاظ التي يكثر استعمالها في محال الأوقاف التركية، وهي عربية بمعنى أعمال البر، التي ترادف كلمة الخير.

وبناءً على الاهتمام الذي شهدته الأوقاف من الأوساط الشعبية مذ أيام الدولة العثمانية وحتى الوقت الراهن، فإنني لما بدأت الإعداد لهذا الموضوع، أردت أن أحصل على بعض الإحصاءات الجديدة عن الأوقاف، وأوضاعها الراهنة على الساحة التركية، فدخلت على بعض المحركات البحثية، فوجدت ٢٩٤٠ موقعاً باللغة التركية مما وردت فيها كلمة الوقف. وهذا يدل على أهمية الموضوع، ثم على تشعبه وتنوعه. ومما يجدر ذكره هنا أن أي جمعية خيرية أو تعاونية إذا أنشئت، فإنه يطلق عليها الوقف، ويدرج ذلك بالإضافة إلى اسمها. ولهذا توجد هناك بعض الجمعيات التي أنشئت من لدن النوادي الماسونية وأطلق عليها لفظ الوقف. مثل وقف الكلية، ووقف العين، ووقف القلب..إلخ التي يشرف عليها نادي ليون الماسوني..

ومن ذلك الاهتمام بالأوقاف أيضاً وجود مديرية خاصة بالأوقاف، ووجود العديد من القوانين المنظمة! لشؤون الأوقاف. والحقيقة أن الأرشيف العثماني غني بالوثائق الكثيرة عن الأوقاف في أنحاء مترامية من الدولة العثمانية، ولا سيما أوقاف الحرمين الشريفين والقدس الشريف، سواء في الأناضول أو غيرها من أراضي الدولة العثمانية. ومما ينبغي ذكره في هذا الصدد أن الاهتمام الذي أولاه العثمانيون للأوقاف قد وصل إلى درجة أن السلطان محمود الثاني (١٨٠٩-١٨٣٩م) الذي يعرف بأنه أب التغريب ومنطَلَقه في الدولة العثمانية، قد قدم – هو وأفراد أسرته – تبرعات وقفية سخية للحجرة النبوية الشريفة، لم أقرأ لغيره مما تبرع بتلك الأموال الكثيرة والهدايا الثمينة. ومن هنا فيمكن القول إن هذا المصطلح الإسلامي الرائع قد تحول مع مرور الأيام إلى عرف اجتماعي معمول به، منتشر على نطاق واسع من المجتمع العثماني.

تطور الأوقاف في العهد العثماني

ومن ذلك الاهتمام بالأوقاف وخاصة أوقاف الحرمين الشريفين، لكثرتها، أن أنشأت الدولة العثمانية نظارة خاصة بأوقاف الحرمين عام ٩٩٥هـ/١٥٨٧م، للقيام بتنظيم أمور الأوقاف، وتفتيشها في فترات دورية، والإشراف على أمورها، ودفع مخصصاتها المالية بعد

تحصيل وارداتها الربحية عن المشروعات التجارية والعقارات الموقوفة على الأوقاف. وكانت النظارة على الأوقاف قبل ذلك تتم من لدن لجنة متولية تشرف عليها برئاسة أقرب القضاة إلى الوقف المعني.

ثم ربطت الأوقاف بشكل مباشر بنظارة الأوقاف الهمايوني الذي أنشىء عام ١٢٤٢هـ/ ، وألحقت نظارة أوقاف الحرمين بها عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م. وكان هناك العديد من الإدارات المشرفة على الأوقاف. منها إدارة تفتيش أوقاف الحرمين، إدارة حسابات أوقاف الحرمين، إدارة إقطاع أوقاف الحرمين..إلخ

والحقيقة أن التطور التي شهدتها الأوقاف في الدولة العثمانية، انعكس إيجاباً على تفعيل دورها وتنويع مصادرها، وعلى التنوع في مجالاتها والخدمات التي تقدمها. وفي هذا الصدد يمكن تقسم الأوقاف، إلى العديد من الأنواع، مع أن الهدف هو واحد وهو ابتغاء مرضاة الله تعالى:

١ – أوقاف خاصة بأداء بعض الخدمات الدينية. مثل المساجد والجوامع والمصليات والتكايا.

٢ – أوقاف خاصة بالتربية والتعليم. مثل المكتبات والمدارس ودور العلم المتخصصة، مثل دور الحديث، ودور القرآن..إلخ

٣ – أوقاف خاصة بالمجالات المدنية والعسكرية. مثل بناء المنازل الوقفية، والثكنات العسكرية والحدائق والمزارع والبساتين.

٤ – أوقاف خاصة بالأمور الاقتصادية. مثل الأسواق الوقفية والمجمعات التجارية وأوقاف النقود.

٥ – أوقاف تؤدي وظائف اجتماعية معينة. مثل المستشفيات ودور الشفاء ودور العجزة، ومساكن خاصة بإرضاع الأطفال.

٦ – أوقاف خاصة بخدمات المياه. مثل السبيلات، وبناء القنوات المائية.

٧ – أوقاف خاصة بالمجالات الرياضية. مثل أندية المصارعين، تكايا للرمي (أي تعليم رمي السهام)، ومختلف أنواع الرياضات التي كانت متوافرة.

وإذا ما أمعن الإنسان النظر في المبالغ المالية الكبيرة التي أنفقت على تلك الأوقاف، لعرف مدى التزام المجتمع بمبادىء الدين الإسلامي في التكافل الاجتماعي والالتزام الأخلاقي إزاء المجتمع، ابتغاء مرضاة الله تعالى. ويمكن التمثيل لذلك بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة. فإضافة على القيمة النادرة للمخطوطات التي اشتراها في وقته بالذهب الأصفر، فإنه قد خصص لأمناء المكتبة والعاملين فيها رواتبهم بأن تدفع من ذلك الذهب الأصفر، وذلك تقديراً منه على عدم تعرضهم للغبن إذا ما نزلت قيمة النقود في وقت من الأوقات، حيث تبقى رواتبهم ثابتة، لأن الذهب يحافظ على قيمته في العادة..

أما المجالات الوقفية التي اعتاد المسلمون لوقف أموالهم فيها أو عليها فهي معروفة. وقد سبق ذكر بعضها. لكن هناك أوقاف لم أكن أعرف شروع المسلمين في مثلها حتى الإعداد لهذا البحث. فمن الأوقاف الغريبة والفريدة في نوعها: وقف خاص بتوفير جَهاز للعروس الفقيرة التي تريد الزواج، ومنها وقف خاص لدفع مبلغ معين للخادمات، ومبلغ من المال على الصحون التي تتكسر بيدها لدفعه إلى سيدها، حتى لا تتعرض منه لسوء أو يوبخها، ومنها وقف خاص بالحبر، لتزويد العلماء بالقدر الكافي من الحبر، ومنها الوقف الخاص لرضاعة الأطفال، ومنها الوقف الخاص بكبار السن من أصحاب القوارب وكذلك الحمالين، الذين لا يتمكنون من الاستمرار في العمل بسب كبر السن، ومنها وقف خاص بتنظيف الشوارع والأزقة. وفي هذا الصدد يمكن ذكر وقف غريب، وهو تخصيص المال لتوظيف عدد معين من الرجال للقيام بتنظيف الشوارع من البلغم وما في حكمه، وذلك بصب الرماد عليه. ومنها وقف خاص بشراء الألعاب للأطفال الفقراء، ومنها وقف خاص بتوفير الحبوب لطائر اللقلق في الجامع الجديد بإستانبول..إلخ

بعض الإحصاءات الوقفية

يحوي أرشيف المديرية العامة للأوقاف بأنقره ٢٦ ألف وقفية، للأوقاف السلجوقية والعثمانية التي وصلت إلى الوقت الراهنة. أما الأوقاف ذاتها التي انتقلت إلى تركيا فهي في حدود سبعة آلاف وقف. وكان في جزيرة قبرص الصغيرة يوجد عام ١٨٧٩م ١٣١ وقفاً، منها ٨٧ جامع ومسجد، و٩ مدارس، ومثلها زوايا، و٣ سبيلات، والأعداد الباقية كانت من الأوقاف التي أوقفها أركان الدولة العثمانية وتعرف بالكليات، أي أوقاف شاملة، فيها

مسجد جامع، وحوله المدرسة، والمسكن، والحمام، والمطبخ، والمستشفى..إلخ. ومن الأمور الجديرة بالذكر هنا في تاريخ الأوقاف بالدولة العثمانية أن المسجد الجامع في أي مدينة عثمانية، ينبغي أن تكون من مشتملاته المدرسة، والإمارة، والسبيل، والمطبخ الخيري والمكتبة..

وبموجب الإحصاءات أيضاً كان يوجد في بلغاريا عام ١٩٨٢م ٣٣٣٩ وقفاً من الأوقاف التي ورثتها من العهد العثماني. منها ٢٣٥٦ مسجداً جامعاً، ١٤٢ مدرسة، و٢٧٣ جسراً، و١٦ خاناً (أي خانقاه)، والبقية سبيلات وحمامات ومكتبات..

وإنني أريد في الختام أن أختتم كلامي بكلام طريف في دور الأوقاف الاجتماعي بالدولة العثمانية: أن رجلاً يلد في منزل وقفي (رباط)، وينام في مهد وقفي، ويأكل ويشرب من أموال الأوقاف، ويقرأ من كتب الأوقاف، ويدرس في مدرسة وقفية، ويستلم راتبه من إدارة الوقف، ويوضع في تابوت وقفي لما يموت، ويدفن في مقبرة وقفية..